دفاع عن الشعر الجاهلي

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

بقية ما نشر في العدد الماضي

— ٢ —

في المقالة السابقة ذكرنا آراء بعض النقاد الذين يتعصبون على الشعر الجاهلي، وحددنا موقفنا منهم، وذكرنا بعض خصائص الشعر الجاهلي لنرى رأينا فيها أحسنة هي أم معيبة يصح أن يطرح الشعر الجاهلي من أجلها، ونتابع الحديث في الجوانب الأخرى الباقية من خصائص الشعر الجاهلي لنستطيع أن نحكم له أو عليه

لاشك أن أهم طابع للشعر الجاهلي بعد الذي ذكرناه سابقا هو هذا الطابع البدوي الواضح الذي يفجؤك في شتى القصائد الجاهلية، مما هو أثر للبيئة والحياة الجاهلية. ونحن ندعو كل منصف إلى ترك هذا الاتجاه في الأداء والتصوير فقد أصبح لا يلائم منهج الحياة في القرن العشرين، كما أن إبراز هذا الطابع البدوي في شعر الشاعر المعاصر يكون تقليدا سخيفا لا مبرر له، ويحول دون ظهور نزعاته الفنية ومواهبه الخاصة المستقلة في شعره، وهذا ضرر بعيد

ومن آثار هذا الطابع في الشعر الجاهلي شدة تمثيله للبيئة البدوية، وقد سار بعض الشعراء المحدثين على هذا النهج، فملأوا أشعارهم بصور الحياة البدوية، من وصف الناقة والجمل والظاعن والمدن والديار القديمة، مما سخر به بعض النقاد والشعراء ودعوا إلى التحرر منه فقال مطيع بن إياس:

لأحسن من بيد تحار بها القطا ... ومن جبل طي ووصف كما سلما

تلاحظ عيني عاشقين كلاهما ... لهمقلة في وجه صاحبها ترعى

وهذه دعوة جديرة بالعناية خليقة بالإيثار، وقد دعا المحدثون في الأدب الحديث وأكثروا من الدعوة إلى أن يكون الشعر

مباشرة دون وساطة. ومثل هذا النقد لا يصدر إلا عن ناقد يعيش حاضره، ويتقبل الشكل الحالي للإذاعة دون استقراء لتاريخها الذي يحدده ويضع معالمه الصوت وحده حتى ليقال: مرحلة ما قبل الكلام، ومرحلة الكلام، ومرحلة ما بعد الكلام وكل نقاد الإذاعة العليمين يجمعون على أن الكلمة الملفوظة غير الكلمة المكتوبة، وأن الإذاعية الكلامية أقل الإذاعيات تأثيرا. وأن في التأثيرات الصوتية عوضا عن التأثير الكلامي. ولندرك أن ذاكرة الأذن للصوت أقوى من ذاكرة العين للتأثيرات البصرية. ولهذا السبب فإن لها قدرة كبيرة على التحريك العميق لمجموعات الناس، والتأثيرات التي تخلقها فيهم تظل طويلا معهم بل كثيرا ما تصبح جزءا من كيانهم وثقافتهم. وحتى إذا انعدم عنصر الكلام منها — وهذا ما لا ننادي به عامدا. فستظل الإذاعة مشتملة على حوار ضمني بين المستمع والمذيع، ويبقى المستمع مدينا للمذيع بما يقدمه من شرح وتفسير، كما سيظل المذيع مدينا للمستمع بتقبله لما يقول.

وإذا كانت الإذاعة تخاطب في الإنسان حاسة واحدة هي السمع، وتتجه الفنون الأخرى إلى مخاطبة أكثر من واحدة، فإن المستمع أو المستمعة يجلسان بعيدين عن كل تأثير في مصطنع: فأنت لا تستطيع أن تتذوق لوحة فنية إلا إذا صحبها جو فني معين، ولا تستطيع أن تستمتع بقراءة كتاب إلا إذا كنت في عزلة تامة، ولا أن نشاهد فيلما إلا في ظلام دامس، ولا مسرحية إلا بين جماعة من الناس — أما في الإذاعة فأنت تستطيع أن تستمتع بها على أية صورة وعلى أي وضع تكون عليه. وقد يكشف لنا هذا عن فردية الإذاعة، ولكنه يكشف لنا كذلك عن وظيفة الإذاعة في الحياة، وهي ضرورة بعث الروح الجماعية في المستمعين، لا تأكيد هذه الروح الفردية. ومن هنا كان على رجل الإذاعة الذي يريد أن يؤثر في مستمعيه تأثيرا مباشرا، أن يدرس نفسية الجمهور ويحاول قتل هذه الروح الفردية. وإذا حرك نفوسهم فلكي يدفعهم إلى عمل حي يفيدهم ويفيد مجتمعهم وهذا هو الجانب الخلاق الحي في عمل رجل الإذاعة. فإذا أجزنا له أن يسليهم فليكن قصده التخفيف عنهم، وجعلهم أكثر استعدادا وقبولا للحياة. فالإذاعية الناجحة قلما تفشل في أعطاء المستمع قصة أو فكرة أو عاطفة أو عملا، يظل معه طوال الحياة، يتردد في أذنه، وتردده جوانب نفسه. وذلك لا يتم إلا حينما تكتمل لها العناصر العضوية المتوفرة في الكائن الحي

وبهذا وحده تكون الإذاعة: «فن وثقافة وحياة»

يوسف الخطاب

صورة لحياة الشاعر ونفسيته وبيئته وعصره ، وإلى أن يخلو من آثار التقليد للقدامى فى أغراض الشعر وفنونه وموضوعاته . وهذا اتجاه جليل قد سار بالشعر العربى الحديث خطوات واسعة نحو التجديد والجمال والروعة ، فالشاعر هو الذى يكون غير مقلد فى معناه أو فى لفظه ، ويكون صاحب هبة فنية فى نفسه وعقله ، ويتأثر ببيئته ويؤثر فيها ، ويمثلها فى جدها ولهوها وفرحها وحزنها وسلامتها وحربها وألمها وأملها أتم تمثيل

ومن آثار هذا الطابع البدوى فى الشعر الجاهلى أيضا بدء أغلب القصائد الجاهلية بذكر الأطلال ، ووصف الديار . وهذا مذهب أغلبية الجاهليين ، لا يشذ عن ذلك إلا القليل ، كعمرو بن كلثوم فى معلقته التى بدأها بذكر الراح ، وكتابط شرا فى قصيدته اللامية المشهورة :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه مايطل

والتى يسميها بعض المستشرقين نشيد الانتقام ويدافع ابن قتيبة فى أوائل كتابه « الشعر والشعراء عن نهج الجاهليين دفاعا حارا ، فقد صور نهج العرب فى وحدة القصيدة وما كانوا يبدأونها به من ذكر الديار والآثار ووصلهم ذلك بالنسيب والشكوى وألم الوجد وفرط الصبابة ثم ذكر الرحلة إلى الممدوح تخلصا إلى مدحه واستجلابا لرضائه وسنى ألطافه ، وقال : والشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام (١) وقد سار الكثير من المخضرمين والاسلاميين على هذا النهج أيضا فأكثروا من بدء قصائدهم بوصف الأطلال والديار كما أكثر الكثير منهم من بدائها بالغزل ، ولم يشذ عن ذلك إلا أبو نواس الذى دعا إلى بدء القصيدة بذكر الراح ، قال

وصف الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وتبعه ابن المعتز فقال :

أف من وصف منزل بعكاظ فحومل

غير الريح رسمه بجنوب وشمأل

وكان أبو نواس شعوبيا فى مذهبه ، أليس هو الذى يقول :

تبكى على طلل الماضين من أسد وتلك أمك قل لى من بنو أسد

ومن تميم ومن قيس ومن يمن ليس الأعاريب عند الله من أحد

ولكن ابن المعتز كان ناقدا يبحث عن الصلة بين الأدب والحياة ويحاول أن يلائم بينهما وينادى بتحضر الشعر وترك المداوة فيه وتمثيله لحياة الشاعر وآرائه فى الحياة وقد ثار ابن رشيق على منهج الجاهليين فى القصيد ورأى مع من رأوا أنه لا معنى لذكر الحضرى الديار (١) وأنه ليس بالمحدث من الحاجة إلى وصف الأبل والقفار لرغبة الناس فى عصره عن تلك الصفات وعلمهم بأن الشاعر إنما يتكلفها ، وأن الأولى وصف الخمر والقيان (٢) وقد تكفلت الحياة نفسها بصرف الشعراء المعاصرين عن هذا النهج الفنى فى القصيدة ، فليس منهم والحمد لله من يبدأ قصيدته بذكر الأبل والقفار والديار والآثار بل ان ذلك لو فعله أحد الآن لرمى بالجنون ولكن معنى ذلك ألا يصف الشاعر المعاصر معاهد أهله وأحبابه فى شعره أبدا ، أو ألا يبدأ قصيدة من قصائده بذكرها ، ولكنا نقول إن العيب هو التزام بدء القصيدة بوصف الاطلال القديمة ، وإذا التزم شاعر معاصر بدء قصائده بذكر معاهد حياته وأحبابه ولم يتخل عن هذا النهج ، لم نحاسبه على ذلك ، إلا اذا قيد هذا من حريته الفنية أو حبس مواهبه وملكاته الأدبية ، فانه يجب بحق ألا يقيد الشاعر نفسه بأى قيد لا تلزمه به نفسه ومواهبه وملكاته الفنية وحدها ، وإلا كان مقلدا لا نصيب له من الشعور بالحياة والاحساس بها والتمتع النفسى العميق بمشاهدها وصورها وألوانها .

وهناك فى الشعر الجاهلى ظاهرة أخرى نشأت عن الطابع البدوى الموروث ، وهى كثرة الغريب والوحشى ، ولا شك أن ذلك مذهب العرب القدامى وحدهم الأثر البيئة البدوية الجافة الخشنة فى عقولهم ونفوسهم . وما أروع ما يقول صفى الدين الحلى الشاعر المتوفى فى عام ٧٥٠ هـ :

انما الحيزبون والدردبيس والطخا والنقاخ والطلطبيس

لغة تنفر المسامع منها حين تروى وتشمئز النفوس

وقبيح أن يذكر النافر الوحشى منها ويترك الأنوس

أين قولى : هذا كثيب قديم ومقالى : عقنقل قدموس

إنما هذه القلوب حديد ولذيذ الألفاظ مغناطيس

وليس هناك أحد يدعو الى استعمال هذه الألفاظ ، أو يرتاح قلبه حين سماعها ، فهى ألفاظ تاريخية يجب أن نفهمها فحسب .

بقيت بعد ذلك صور البيان الادبى نفسه . أنصوغ أسلوبنا